

أي علاقة بين الذاكرة والخيال في السرديات العربية المعاصرة

الكاتبات ربطن الإبداع بالاشعور وحررن الخيال من أي ارتباط بالعقل الواعي



هل الكاتب يتذكر أم يرتدي قناع الذاكرة (لوحة للفنانة علا الأيوبى)

والأنثوية، كما في "أرملة الفرح" لتغريد قنديل، وهوم الورد لهدى أبوغنيمة. ويذكر أن للمؤلف أكثر من أربعين كتابا في النقد منها: اقنعة الراوي، وتاملات في السرد العربي، وبلاغة الرواية ومسارات القراءة، وروايات عربية تحت المجهر، وشعرية القصة وحوار الأجناس، ومراوغة السرد وتحولات المعنى.

أمة عنه. يحتضن ديبه المفضل، ويربت على كنفه بحنان، ولكن هذا الطفل، كغيره من أطفال قصص "جوار الماء"، لا يقتنع بهذا الاكتشاف، وخذ، إذ يغدو أسيرا لدى رؤاه المنامية التي تراوح بين عذوبة مشاكسة، وقسوة، تفتح عينيه على عالم غريب، قبل أن ينتبه ليد أبيه تجذبه بقوة من تحت السرير.. كذلك يلحظ الناقد غلبة الهموم النسوية،

أما أماني سليمان فتستعيد في مجموعتها "جوار الماء" أجواء الطفولة، ففي قصة "جحر" تروي شيئا عما يشعر به الطفل من إحساس بلذة الكشف، عندما يشاهد لأول مرة هندبا يُرَقَص الأفعى على نغمات الناي. وفي قصة "سريـر" يستمتع الطفل بلذة الاكتشاف حين يحاول الاختباء تحت السرير، ليجد الكثير من الألعاب والدمى، التي تخفيها

بل بصفته "كان ما سوف يكون"، فلو لم تكن لميس هي التي تتذكر ما تتذكره، لوجب على شهلا العجيلي ألا تغفل عنه، ولا تنساه.

ويستطرد الكتاب في تناوله لعلاقة الذاكرة بالخيال في السرديات العربية المعاصرة، عبر دراسات أخرى هي: الذاكرة والمتخيل في "قسم البنفسج" لجمال القيسي، والأنسا والأخر في "سجين المرابا" للكويبي سعود السنوسي، ورواية "شامان" للعراقي شاكـر نوري، ورواية "صندوق أسود آخر" للكويبي إسماعيل فهد إسماعيل، ورواية "البحار" لهاشم غرايبة، وأخيرا رواية "1989" لعصام سليمان الموسى.

سوربالية نسوية

يضم القسم الثاني من الكتاب تنبؤا لظاهرة الذكر في القصة القصيرة، عبر ثماني مجموعات قصصية هي: "مقهى الباشورة" لخليل السواحري، "كحة مباركة" لسامية العطوط، "جوار الماء" لأماني سليمان، "سريـر بنت الملك" لشهلا العجيلي، "هموم الورد" لهدى أبوغنيمة، "طرز الغرزة" للمغربي أحمد المدني، "زهريت" لرمزي الغرزوي، "أرملة الفرح" لتغريد قنديل.

ويلاحظ القارئ أن خمسا من بين هذه المجموعات الثماني لكاتبات، ويرى الكاتب أنهن عملن على ربط الإبداع بالاشعور، وقمن بتحرير الخيال من أي ارتباط بالعقل الواعي، والتخلي عن المنطق في جسد الحكاية، والاستسلام لمنطق الحلم، كما في مجموعة "كاي جثة مباركة" لسامية العطوط، ففي قصة "كراسة الحرب" تقدم رؤيتها المشوهة للواقع المشح بلهب الحروب الأهلية المستعرة، الواقع إلى واقع مخفج، ويرصد الكاتب لجوء سامية العطوط إلى الكوايبس، وأنها تستعيد الروابط التي تصل بين المتواليات السردية، وتطلق لخيالها العنان، فتصوّر الواقع تصويرا يصل بنا إلى تخوم الغرائب.

ويرى الناقد أن "سريـر بنت الملك" لشهلا العجيلي ضمت قصصا تعري الواقع، وبلغت الانتباه فيها اعتماد الكاتبة على التواتر، كما في قصة "مذكرات حذاء سنديلا"، "بلدى حبيبي"، و"الأخطبوط".

في روايته "خفة الكائن التي لا تحتمل" يقول ميلان كونديرا "نحن نعيش نصف حياة فقط، أما النصف الآخر فذاكرة"، هكذا ينسب للذاكرة نصف عيشنا، لكن النقد في حديثهم عن مصادر الإبداع، اختلفوا بشكل كلي في تناولهم لسؤال: هل يعود الإبداع إلى الخيال أم إلى الذاكرة؟

أحمد رجب

القاهرة - اختلف نقاد الأدب في تناولهم لمسألة الذاكرة وارتباطها بالإبداع الأدبي من عدمه، فمنهم من يرى مثلا أن الإبداع الروائي خيالا محض لا يلعب التذكر فيه إلا دورا ضئيلا، وعلى العكس من هؤلاء هناك من ينظر إلى الرواية العربية عموما باعتبارها ظاهرة من ظواهر الذاكرة، إذ انصرفت إلى تذكر الماضي لا إلى تخيل عوالم لا علاقة لها بالواقع.

في هذه المسألة يقف الناقد والأكاديمي الأردني الدكتور إبراهيم خليل موقفا وسطا فيؤكد على أن التذكر، والتخيل، صنوان يعملان معا في نسج الخطاب السردية، ولا يمكن للمبدع أن يستغنى عن أحدهما، وحتى لا يكون كلامه محض تنظير عمد إلى إثبات ذلك تطبيقيا في أحدث كتبه "الذاكرة والمتخيل في الخطاب السردية".

أنثيال الذاكرة

يخصص الكاتب القسم الأول من كتابه، الصادر مؤخرا في عمان عن دار أمواج للطباعة والنشر، لدراسة التذكر في عشر روايات، ويبدأ برواية "وداعا يا زكريا" لرشاد أبي شاور، فيقول إنها تستعيد وقائع تاريخية لما حدث لقربة زكريا التي احتلتها إسرائيل عام 1948، وجمعت بين السيرة والتاريخ والسرد الروائي، ويأخذ عليها الإسراف في التقاط التفاصيل من أنثيالات الذاكرة، مما جعلها تبدو وكأنها بحث في العادات والتقاليد.

الذاكرة بصفتها إحدى التقنيات السردية التي يلجأ إليها الروائيون لاستبطان عوالم الراوي المشارك لكنها لا تختزل الإبداع

وأشار الناقد إلى أنه نظرا إلى كون الحوادث التي تعالجها الرواية تاريخية، فقد استعدت دورا للذاكرة، ونظرا إلى

قول في خطل القول



هناك كتاب يطلقون القول على عواهنه من دون تدقيق أو مراجعة أو مرجع أمين، فتختلط دوافع خطل القول

والرأي الصادر عن وعي ومراجعة وتامل وتجربة، وحرية القول هذه اقترنت بكثير من خطل القول، ومن يتابع بعض ما يصدر عن وسائل الاتصال، مما ينتشر انتشارا واسعا أحيانا، ويصل إلى كثيرين ممن يتقبلونه بعيدا عن فضاء النقد والحوار، يجد كذا من الادعاء ومثله من الكذب، قد لا يحمو الحقيقة ولكنه يخلط الأوراق ويغيب ما بين الخيط الأبيض والخيط الأسود.

لقد قرأت ما كتبه الدكتورة سلمى الجنابي، عن تجربة أجرتها مع طلبتها، إذ طلبت منهم الكتابة عن شخصية سياسية، على أن يعود كل منهم إلى ما يجده في "كمبيوتره" من أقوال عن هذه الشخصية.

وتقول "كانت النتائج تتسم بالغرابة، فمنهم من رأى قديسا ومنهم من رأى إبليسا، ومنهم من ضاع بين تناقض ما وجد من مقولات عنه".

وهذه النتائج بفعل ما يواجه المثقفي من تدخلات كثيرة لا ضابط لها، لا تتجاوز الحقيقة حين نصف بعضها بأنها من خطل القول.

ما قبل الإسلام، وكان من دهاة العرب وشجعانهم، ووصفه الميداني بالقول: إنه سيد فرب، وأذكر أنني قرأت هذين البيتين ومن ثم حفظتهما وردتهما، في كتاب مصادر الشعر الجاهلي لأستاذنا الراحل الدكتور ناصر الدين الأسد، هذا الكتاب الموسوعي الذي لم يترك شاردة أو واردة في ما يتعلق بالشعر العربي قبل الإسلام، بل بالحياة العربية والثقافة العربية وقتذاك، مصادرهما ومساراتها ومنجزاتها، لذا رافقتي ورافقت منذ العام الجامعي الأول، أقرأه وأراجعه وأعود إليه، محاورا متاملا.

لا أريد أن ياخذني شغفي بهذا الكتاب وأعجابي به، بعيدا عن الموضوع الذي أردت الوقوف عنده، لكن لا بد من القول، إن الدكتور ناصر الدين الأسد في كتابه هذا قد كشف الكثير من خطل القول، وصححا ومقوما.

وهنا يحضر سؤال لا بد منه، لماذا يعمد كاتب إلى الكذب، والكذب كما قلت من قبل من أسوأ أنواع خطل القول، وأفرد الكاتب في سؤاله هذا، لأن الكاتب يقترن حين يكذب، من الانحراف وتعميم الخطأ، ما لا يقترنه شخص عادي، لا يتعدى كذبه شخصا واحدا أو عددا قليلا من الأشخاص ممن يستمعون إليه.

لكن في زمننا هذا، حيث تقدم وسائل الاتصال وتعددها وسعة انتشارها وسرعتها، وتوفر فرصة القول لكل من يريد القول، من دون شروط أو حدود، ومن دون رقيب موضوعي ذي خبرة وتجربة، بقدر ما تتوفر حرية القول، قد لا تتوفر حرية الرأي، والفرق واضح بين القول الذي يطلق على عواهنه،

وإذ كنت أحاور ما ورد في الكتاب المذكور من وهم وكذب، أو لاقل من وهم بمستوى الكذب، فتذكرت بيتين من الشعر، لأحجية بن الجلاح، حيث قال: "والصمت أحسن بالقول / ما لم يكن عي يشينه"

والقول ذو خطل إذا / ما لم يكن لب يعينه.

ولا أشك أن قارئاً فطنا، سيسأل، من أحجية بن الجلاح هذا، ومن أين جئت به ومن أي الحفائر، فأقول: إنه من شعراء

إعادة القول إلى جادة الصواب، بل يمكن أن نجد للوهم ما يسوغه، من التسيان واختلال المصادر، بل يمكن أن نعده تجورا، وجهة نظر.

غير أن الكذب، الصادر عن خلل تربوي أو اختلال نفسي، فعل تخريب على أكثر من صعيد، وبخاصة حين ينتقل من حال القول العابر إلى حالة الكتابة، حيث يتلقاها من لا يتوفر على وعي نقدي، فيقبلها على أنها حقيقة، وفي مثل هذا التلقي أساءة خطيرة.

بالأختل الصغير، لتأثره بالأختل التغلبي وبخاصة في غزله وخمرياته. إن ما الجاني إلى هذه المفردة الملتبسة، التي تكاد تغيب عن التداول في الكتابة، أن وقع في يدي منذ أيام كتاب، مما يكتب في أيامنا هذه، فيطلق الكاتب القول على عواهنه، من دون تدقيق أو مراجعة أو مرجع أمين، فتختلط دوافع خطل القول، فلا يتبين المثقفي، الوهم من الكذب، وللوهم أسبابه التي يمكن تجاوزها ومن ثم



حميد سعيد كاتب عراقي

أما الخطل فهو فساد الرأي، والخطل في القول الفساد والفحش والوهم والخطأ، ومن معانيها في اللغة طول الأنتين مع رخاوة فيها، وفي العامية العراقية يقال للغبي كثير الخطأ والزلل، هذا شخص أخطل ويقال للمرأة بهذه الأوصاف، خطلة، وقصبيها خطلاء، وأخطل وخطلة كثير وروبهما في كلام العراقيين، ومما قيل في الدعاء: نستغفر الله من خطل القول ومن خطا العمل، وقال ابن قتيبة في كتابه الفريد "أدب الكاتب"، "ونحن نستحب لمن قبل عنا وأتمم بكتبتنا، أن يؤدب نفسه، قبل أن يؤدب لسانه، ويهذب أخلاقه قبل أن يهذب الفاظه، ويصون مروءته من دناءة الغيبة وصناعته من شين الكذب، ويجانب قبل مجانية اللحن وخطل القول، شنيع الكلام ورفث المزح، وبهذا القول كان ابن قتيبة يجعل من خطل القول أكثر قبولا من شنيع الكلام ورفث المزح، وللرجل رأي".

وما دمننا نتناول الخطل والأختل، ينبغي أن نتوقف عند الشاعر العربي الأخطل التغلبي الذي يعد ثالث ثلاثة من كبار الشعراء في العصر الأموي، جريب والفرزدق والأخطل، وسمي الأخطل، لحماقة ارتكبها في طفولته، أما الشاعر اللبباني الكبير بشارة الخوري الذي اتسم شعره بالركة والجمال، وهو كما تؤكد لنا سيرته، كان بعيدا عن الخطل في شعره وفي حياته، غير أنه لقب



اللجوء إلى الكذب (لوحة للفنان باسم دحوج)